الفصل الخامس

النماذج المفسرة لسلوكات للبلطجة

يـرى البعـض أن البلطجـة متأصلـة Inherent في السـلوك البشري، مما أدى إلى وجود اسـتراتيجيات اجتماعيـة للبقاء عبر تاريخ البشرية منذ وقت مبكر. وتشـير النظريات إلى أن العدوانية والتنافس والهيمنة Dominating سلوكات ساعدت منذ وقت مبكر على وجود مهاجمي النظام، وهذه الصفات ظلت كما هي في الإنسان الحديث (Rigby, 2002). وتفهم البلطجة الآن على أنها ظاهرة اجتماعية بيئيـة Socio-ecological (Boyd & Barwick, 2011) ولذلك فإن سلوكات البلطجة لا تفهم ببساطة على أنها من سمات الشخصية، ولكـن يدخـل في الاعتبار عوامـل أخرى مثـل الأسرة والمدرسـة والأقران والمجتمع.

ولقد تعددت المناهج والنظريات التي تناولت مشـكلة البلطجة، فهناك المحللـون النفسـيون ويمثلهـم «فرويـد» Freud وهم يعتقـدون أن الكثير من عدوانية الإنسـان ذو منشـأ فطري. وهناك آخرون يعتقدون أنه سلوك يكتسـب في مرحلة الطفولة، مثـل دولارد Dollard وميلر Miller وباندورا وغيرهم، كـما توجد نظرية العالم الإيطالي لومـبروزو Lombroso (1836 - 1909) الذي وضع أسـس لدراسة سـلوك المجرمين للوصول إلى اعتقادات تثبت أن المجرم ولد ليكون كذلك.

وكل هؤلاء المنظرين يواجهون مشكلات أساسية، وهي البحث في القوى التي تحرض الفرد، والعوامل التي تعمل لكبت بعض الأنماط السلوكية، وفي البواعث التي تثير السلوك العدواني أو تعيقه. وتجدر الإشارة أن مصطلح البلطجة لم يكن موجودًا لدى علماء النفس القدامى، وإنما أجريت البحوث والدراسات على العنف والعدوان، وإذا كان العنف هو الترجمة الفعلية للعدوان السلبي فإن البلطجة هي الصورة الشاذة والمقصودة والمتكررة من هذا العنف، أي أن المصطلحات تجري في إطار سيكولوجي واحد.

النظرية اللومبروزية

شيزاري لومبروزو هو صاحب نظرية الرجل المجرم والتي أطلق عليها فيما بعد نظرية المجرم بالميلاد، تمثل هذه النظرية حجر الزاوية لكافة المذاهب البيولوجية والتكوينية التي جاءت من بعده لتفسير السلوك الإجرامي. لقدأجرى لومبروزو بحوثًا على نحو (383) جمجمة من مرتكبي جرائم العنف المتوفيين، واكتشف وجود تجويف في مؤخرة الدماغ، كما استرعى انتباهه شذوذ في تكوين الأسنان وشكل الجبهة وحجم الجمجمة يشبه الحال الذي كان عليه الإنسان البدائي، ثم تأكدت وجهة نظره بعد تطبيقه مقاييس أنثروبولوجية وبالفحص العضوي لعدد (5907) من المجرمين الأحياء.

وتقوم نظرية لومبروزو على أساس أن هناك أشخاصًا يتميزون بخصائص جسدية وملامح عضوية خاصة، وسمات نفسية معينة، وينقادون إلى الجريمة بتأثير العوامل الوراثية، وبحكم تكوينهم البيولوجي (علاء إسماعيل وأحمد المراغي، 2016، 43).

تعرضت أفكار لومبروزو لنقد شديد مما دفعه إلى تطوير نظريته فقام باستبعاد المجرم بالميلاد ليعتمد تصنيف يضم الفئات الآتية:

- **المجرم المجنون:** وهو شخص يرتكب الجريمة تحت تأثير المرض العقلي، وقد أدخل لومبروزو في هذه الطائفة المجرم الهستيري ومدمن الخمر والمخدرات، ويرى أنه يجب إيداعه في مصحة عقلية حتى يتم شفائه.
- **المجرم الصرعي:** وهو من يرتكب الجريمة تحت تأثير الصرع، وقد تتطور حالة المريض بالصرع فتؤثر على حالته العقلية.
- **المجرم السيكوباتي:** والسيكوباتية هي عدم القدرة على التآلف مع المجتمع، وهو شخص يتميز بالقسوة والميل إلى الانحراف وفقدان الحس الخلقي.
- **المجرم العاطفي:** يرتكب الجريمة بسبب عوامل عاطفية مثل الحماسة والغيرة والدفاع عن الشرف، وهو مجرم يتصف بحدة المزاج والحساسية المفرطة وسرعة الانفعال، وتكون جرائمه من نوع الجرائم السياسية، والاعتداء على الأشخاص.
- **المجرم المعتاد:** يندفع للجريمة تحت تأثير ظروف بيئية واجتماعية كإدمان الخمر والبطالة والفقر، واختلاطه منذ الصغر بالبلطجية والمجرمين.
- **المجرم بالمصادفة:** شخص لا يتوفر فيه الاستعداد للجريمة، وما يرتكبه من جرائم يكون تحت ضغط مؤثرات خارجية طارئة مثل

حب التقليد والظهـور، الحاجة الملحة، تعاطي المخدرات أو عقاقير الهلوسة.

وعـلى الرغم من النقد الشـديد الـذي وجه إلى نظرية لومـبروزو إلا أنه لم يقـصر اهتمامـه على الصفـات العضوية فقط و إنما تعداهـا إلى الصفات النفسـية والعوامل الاجتماعيـة، ومع ذلك فقد بالغ في إظهـار دور الصفات الخلقية والعيوب الجسدية واعتبارها الدافع إلى الإجرام.

نظرية التحليل النفسي

إسـتغرق اهتمام «فرويد» Freud (1856 - 1939) التعرف على الأسـس الأولية للسـلوك الإنساني، تلك الأسـس الفطرية التي تسبق كل تعلم، يولد بها الإنسـان وتنطوي عليها نفسـه فتدفعه إلى كثير مما يصـدر عنه من ألوان المشاعر وأشكال التفكير ومظاهر العمل والسلوك.

وقد بدأ فرويد بوضع نظرية سيكولوجية في الغرائز أساسها مكتشفات التحليـل النفـسي، والغاية منها توضيـح مغزى هذه المكتشـفات من حيث الدوافـع والميول العامة، ثم انتهى إلى تصنيـف الغرائز فأدرج دوافع حفظ الذات ودوافع حفظ الجنس تحت غريزة الحياة أو الإيروس Eros ووضع في مقابلها ما أسماه غريزة التدمير أو الموت «ثاناتوس» Thanatos (سامي على، وعبد السلام القفاش (في) فرويد، ب.ت، 88).

وحسـب نظرية التحليل النفـسي فإن البلطجي هو شـخص جانح، وأن هـذا الشـخص لا يعاني من سـلوكه المقلق بقـدر ما يعاني منـه المحيطين به، ولهذا لم يكن لديه دافع لتغيير نمط سـلوكه، بل إنه يشعر بغاية الرضى؛ لأنه

ينفس عن نوازع العدوان. هذا العدوان هو غريزة فطرية تدفع الإنسان إلى الاعتداء والمقاتلة، أي أن البلطجة هي تصريف للطاقة العدائية التي تنشأ داخل الفرد عن غريزة العدوان وتلح في طلب الإشباع.

هذه الطاقة التدميرية يجب السماح لها ببعض الانطلاق والتحرر، فقد ينتج عن كبح العدوان بصورة تعسفية أن يظهر هذا العدوان بين الحين والآخر وبأي أسلوب سواء كان ذلك العدوان مباشراً أو غير مباشر، فإذا انطلقت تلك الطاقة في صورتها القوية ينتج عن ذلك تدمير مباشر للممتلكات والآخرين.

وإذا كان المجتمع المتمثل بداية في صورة الوالدين يمثل قوة كبح لاحتياجات الفرد ويهدد بمنع الحب والاهتمام إذا لم يقاتل تلك الرغبات، عندئذٍ ترفض الرغبات وتعتبر خطيئة وليست أخلاقية على المستوى الشعوري. هذه الرغبات متصلة بالغرائز الأصلية وهذا يعني أنها لن تختفي بواسطة كبتها أو إنكارها شعوريًا، وإذا ما زاد مستوى الإحباط والكبت فإنها سوف تنفجر وينتج عن ذلك سلوكًا مضادًا للمجتمع.

إن «فرويد» يرى أن دوافع السلوك تنبع من طاقة بيولوجية عامة تنقسم إلى نزعات بنائية وأخرى هدامة (دوافع الحياة ودوافع الموت)، وتعبر دوافع الموت عن نفسها في صورة دوافع عدوانية موجهة نحو الذات ونحو الآخرين، أما العدوان الموجه نحو الذات فقد تبدو صورته لدى البلطجي في تعاطيه للمخدرات، حتى أن بعضهم يتعاطى العديد من المواد المخدرة التي تودي بحياته، علاوة على أن الشخص البلطجي عندما يثار ولا يستطيع أن ينفث عدوانه خارجًا فإنه يلجأ إلى تمزيق جسده بأدوات حادة، وهو ما

رآه المؤلـف رأي العين. بينما العدوان الموجه نحو الآخرين يبدو في الاعتداء عليهم بالقول والفعل، والاعتداء على الممتلكات والتخريب.

ومقـر دوافع الموت اللاشـعور ويمثلها الهـو ID ثم يـأتي دور الأنا Ego الضعيفـة غـير الناضجة التي تتخاذل أمـام تعارض تلك القـوى، فتقع تحت سـيطرة الهو وتخضع لضغوطه، وعندئذ يسود مبدأ اللذة ويهمل مبدأ الواقع، فيلجأ الفرد في هذه الحالة إلى تحطيم العوائق والقيود ويصبح السلوك منحرفًا ويأخذ أشكالاً عدوانية.

فالبلطجـة قد تكون من سـمات بعض العاديين -أيضًـا- الذين لا يعانون اضطرابات نفسية، وليس معنى ذلك أن هذه الحالات لا ترتبط بها أي صراعات لا شعورية، فاللاشعور يتدخل في كل فعل تقريبًا، ولذلك فإن البلطجة ترجع إلى عملية تقمص خاطئ، وهذا البلطجي يتوحد مع موضوعات خاطئة، وقد يحدد المجتمع للفرد أشخاصًا ليتوحد معهم ويكونون هم أنفسهم منحرفين.

ثم كان الفرويديون الجدد Neo Freudian من أمثال أدلر Adler ويونج jung وفـروم Fromm وهـورني Horney فاهتم هؤلاء المحللـون بأهمية القلق النفسي والصراع كأساس جوهري في الاضطراب. فاهتم فروم وسوليفان وهورني بأهمية العوامل الاجتماعية والثقافية والعلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع.

وقـد صنفت «هورني» التفاعل بين الناس ثلاثة تصنيفات من أجل بلوغ الأمـن والأمان، فكان من هذه التصنيفـات «النمط العدائي»، حيث يتصف أصحـاب هذا الاتجـاه بالرغبة في الهيمنـة، والعداء والاسـتغلال للآخرين، ويحيـا هذا النمط من الناس وفـق اعتقاد واهم يقول: إذا امتلكت القوة فلن يستطيع أحد أن يضرني (إبراهيم عيد، 2005، 131).

وترى هورني Horney أن العدوان دافع مكتسب، ويعد وسيلة يحاول بها الإنسان حماية أمنه، فالقلق الذي يعاني منه الفرد نتيجة خبرات الطفولة المؤلمة المتمثلة في اللامبالاة والخلافات العائلية والإسراف في القسوة أو التدلل الزائد أو الحماية الزائدة قد يثير الفرد للكفاح والتغلب على مشاعر عدم الأمن والعجز، مندفعاً في ذلك إلى إتباع سلوكات منحرفة وغير سوية من أجل تحقيق ذاته. فهذا الطفل الذي لم يستطع الحصول على الحب قد يعمل على تحقيق القوة والسيطرة على الآخرين، حتى يعوض إحساسه بالعجز ويجد منفذاً للعدوان.

وبحسب «فروم» فإن الإنسان يلجأ إلى عدد من الاستراتيجيات كآليات للهروب، ومن هذه الآليات «التسلطية» والتكوين النفسي لهذه الشخصية يقوم على عشق القوة والحض على العدوان والتوحد مع نماذج القوة والحضور التلقائي للسادية والماسوشية (إبراهيم عيد، 2005، 108).

كما يؤكد «فروم» أن الحافز والدافع البيولوجي هو الذي يشكل سلوك الفرد، وبناء على ذلك فإن الفرد قد يسلك سلوكًا عدوانيًا نتيجة لقوة تلك الحوافز والدوافع، خاصة أن الإنسان يكافح من أجل التخلص من عجزه لأجل تحقيق حاجاته وذاته والسيطرة على مادية المجتمع، وبذلك ينظر «فروم» إلى أن الفرق بين الشخصية السوية وغير السوية يكمن في عثور الفرد السليم على إجابة لدوافعه تشبع معظم حاجاته، بينما غير السوي قد يسلك سلوكًا إجراميًا لكي يشبع حاجاته؛ لأنه غير قادر على إشباعها بالطرق المنطقية السليمة.

أما «يونج» فيذهب على أن المصادر الرئيسة للقلق والصراع هي وقوع

النماذج الأصلية للاشعور الجمعي في صراع مع الأنا، أو وقوع اللاشعور الشخصي في صراع مع الأنا.

ومن المفاهيم الأصلية لبنية الشخصية عند «يونج» كان مفهوم «الظل» وهو الذي يحتوي على النزعات العدوانية والدوافع الدنيئة البدائية والعناصر اللااجتماعية التي تكمن في أعماق النفس البشرية، وهو ينطبق مع مفهوم الهو عند فرويد (فيصل عباس، 1994، 128).

في حين يذهب «آدلر» إلى أن الشعور بالنقص والسعي وراء القوة الاجتماعية هما أسباب القلق والصراع، سواء كان هذا الشعور مبنيًا على أسباب حقيقية أو مجرد وهم وخيال. إن عقدة النقص واحدة من أهم اكتشافات علم النفس الفردي. والمؤلف يرى أن الشخص البلطجي هو شخص يعاني من عقدة نقص، فهو يفكر قائلاً لنفسه: من المرجح أن الكثير من أفراد ذلك المجتمع المحيط بي سيحاولون تجاهلي والتقليل من شأني، ولهذا فأنا أسبقهم وأريهم مدى أهميتي.

إن هؤلاء البلطجية فشلوا في حياتهم بسبب نقص كبير في شعورهم بمدى احتياجهم لأصدقاء وحب باقي أفراد المجتمع، وأيضًا عدم احتياج باقي أفراد المجتمع لهم، ويمثل هذا النقص السبب الرئيس لفشل هؤلاء. فهم يتعاملون مع المشكلات بطريقة تنم عن عدم ثقتهم في أنفسهم للتغلب على هذه المشكلات من خلال التعاون؛ لأن «معنى الحياة» بالنسبة إليهم يظل محصورًا في نطاق ضيق لا يتعدى ذواتهم.

ويؤكد إريكسون Eriksson أن مشكلة العدوان ترتبط بالممارسات الوالدية القاسية والمليئة بالنبذ والسيطرة، وأن هذه الممارسات قد تجعل

الفرد في الكبر يسيطر على كل من حوله، سواء السيطرة التي تتسم بالقبول والحب، أو السيطرة الممثلة في القسوة والعدوان (حامد زهران، 1999، 78).

الغرائز الجزئية لدى البلطجي:

هي غزائز تندرج في غيرها، ولا تسعى كل على حدة لتحقيق اللذة مستقلة عن بعضها البعض، لكنها تنتظم وتندرج وخاصة في مرحلة المراهقة، وتعمل بشكل مساند للمنطقة التناسلية، وعندئذٍ تكون وظيفتها التحضير للفعل الجنسي. وفي التطور غير السوي قد يتوقف النمو و يثبت على إحدى هذه الغرائز المندرجة، وعندئذٍ لا تعود وسيلة لغاية، لكنها تصبح هي نفسها مصدرًا للذة النهائية، وهو ما نشاهده في الاستعراضية والنظارية والسادية والماسوشية (عبد المنعم الحفني، 1994، 156).

و يشير «مخيمر» إلى أن «فرويد» لا يقف عند غريزتي الحياة (الجنسية) أو الموت (العدوانية)، بل يرجع الغريزة الجنسية إلى عدد من العناصر التكوينية، يطلق عليها الغرائز الجزئية، وهذه الغرائز تتحدد في السادية والماسوشية والنظارية والاستعراضية، هذه الغرائز الجزئية ليست تابعة للجنسية وحدها، بل للجنسية والعدوانية معًا، فكثيرًا ما يمارس الفرد السادية والماسوشية معًا في نفس الوقت (صلاح مخيمر، 1981).

و يوضح أكرم زيدان (2002) أن الغرائز الجزئية و إن كان الأصل فيها يرجع إلى المفاهيم الجنسية، إلا أنها تشتمل على معاني أخرى كثيرة غير جنسية، بحيث يمكننا أن نقول أن العدوان والتخريب و إهانة الآخرين والتسلط والتحكم والعنف كلها تشير إلى مفهوم السادية، وكذلك مفاهيم إهانة الذات و إيلام الذات والانتحار والشعور المفرط بالذنب كلها مفاهيم

تشير إلى الماسوشية، وأن مفاهيم التجسس والفضيحة وكشف المستور تندرج تحت النظارية، وبالمثل مفاهيم حب الظهور والاعتداد بالنفس والمبالغة في تقدير الذات وسلوك المخاطرة والتباهي يتطابق مع مفهوم الاستعراضية.

وتأسيسًا على ما سبق فإن الغرائز الجزئية من منظور البلطجة تعني العدوان والعنف والتسلط والتحكم والتلذذ بإيلام الآخرين، وهو ما نعني به السادية Sadism. إن البلطجي يتوحد بأكثر شخصيات الجماعة التي ينتمي إليها، ومن هنا يؤدي قصور التوحد والتطبيع الاجتماعي لدى الفرد إلى أن ينتمي إلى جماعات، وأن يتوحد مع شخصيات تدين بقيم مخالفة لقيم المجتمع الكبير، وهكذا يتصف سلوك الشخص البلطجي بكونه معاديًا للمجتمع، ويكون فعله الإجرامي عدوان يتجه به ضد العالم الخارجي (سادية)، والشخص الذي يقع عليه الألم (الضحية) قد يكون من نفس الجنس الذي ينتمي إليه البلطجي، أو قد يكون طفلاً أو حيوانًا، وقد يكون الألم الذي ينزله البلطجي بالضحية ألمًا ماديًا يصل إلى حد القتل، وقد يكون نفسيًا من قبيل التجريح والإذلال، كما حدث من بعض البلطجية عندما قاموا بإجبار شخص على ارتداء ملابس للنساء واقتادوه في الطريق العام وقاموا بتصويره بهدف إذلاله.

وبناء على ذلك لا ينظر المؤلف للسادية على أنها انحراف جنسي فقط، ولكنه يرى -أيضًا- أنها حفزات عدوانية تدميرية تجاه الآخرين بجانب كونها انحراف جنسي. فالسادية ليست مجرد انحراف جنسي بقدر ما هي تعويض للعجز عن الحب والإبداع، ويكون هذا التعويض في شكل إظهار للقوة وإيذاء الآخرين والسيطرة عليهم. فالسادية في الأصل عدوانًا قبل أن

تكون جنسًا، فهي تمثل طرف مستبد ظالم ينزل الأذى بضحيته، ولا يستطيع أن يحس بالقوة إلا من خلال التحقق من ضعف الضحية.

هذا الطرف المتسلط لا يستقر له توازن إلا حين يدفع بذلك المقهور إلى موقع الرضوخ العاجز المستسلم، أي إلى الموقع الماسوشي.

إن السادية في ارتدادها على الشخص تكون الماسوشية Masochism التي تنشأ عن اتحاد الغرائز الجزئية مع غرائز الهدم الموجه ضد الذات، وهو ما يلاحظ في إدمان البلطجي للمخدرات والحبوب المخدرة، واشتراكه في مشاجرات يتعرض خلالها لجروح هو يسعى إليها ويفتخر بها، وبالتالي فإن السادية والماسوشية من أكثر المكونات الأساسية تداخلاً في شخصية البلطجي.

ويشير حسين عبد القادر (في فرج طه وآخرون، 2009، 147-146) إلى أن «الاستعراضية Exhibitionism هي إحدى الدفعات الغريزية الجزئية القهرية، والتي تشير إلى أن الدافع الغريزي الجنسي منذ البدء في حالة متعددة الأشكال، وأن الاستعراضية هي الوجه السالب للنظارية عندما تحل محل الهدف الجنسي السوي وتقهر صاحبها لعرض الأعضاء التناسلية أو أجزاء أخرى من البدن يلزم الواقع بسترها».

أي أن الاستعراضية هي حب الظهور والاستعراض، وغالبًا ما يريد البلطجي من وراء استعراضه أن يصدم الآخرين ويدهشهم، وهو ما يحقق له إشباع غريزي بعرض نفسه، فنجده يبادر بخلع ملابسه في أي مشاجرة، بل ومنهم من يتجرد من ملابسه تمامًا. وإذا كان الشخص السوي يفوز بمتعة ثانوية عندما يكون محط الأنظار، فإن الشخص المنحرف يفوز بمتعة رئيسة

عندما يلفت الأنظار إليه ويظهر التعري، حيث يظهرون عوراتهم للنساء والأطفال عبر كاميرا الويب كبديل للضعف، في تخفٍ بدلًا من المواجهة، وبعيدًا عن الحس والحقيقة، ويرجع البعض ذلك إلى عدم حل عقدة أو ذنب، بجانب عقدة الخصاء عند الفرد. وبذلك يتخذ البلطجي من نفسه مركزًا ثابتًا للانتباه، ويتوقع البلطجي الاستعراضي أن الآخرين سوف يذهلون من أفعاله سواء بالإعجاب أو الاشمئزاز.

والنظارية Scopophilia هي الوجه الموجب للاستعراضية، وهي حفزات الاندماج في ملاحظة أشخاص أثناء نشاط جنسي، وتكون النظارية انحرافًا إذا حدثت في ظروف لا يقبلها المجتمع. والنظارية ليست جنسًا فقط، بل قد تشمل سلوكات بعيدة عن الجنس، مثل كشف أسرار الغير عن طريق استراق النظر، أو عن طريق الهاكرز على أجهزة الآخرين ومعرفة ما بها من بيانات فيما يعرف بالبلطجة عبر الإنترنت أو البلطجة السيبرية. والنظارية لدى البلطجي هي في الأساس فعل سادي يحاول من خلاله أن يضرب الآخر في العمق من خلال معرفة جوانب ضعفه وقوته، والاستمتاع بهتك سره، فالنظارية كراهية، ومحاولة لافتضاح الآخر بما لا يليق، وهي بذلك قسوة يحاول فيها البلطجي أن ينال من الآخر ويلغي إرادته.

بالإضافة إلى أن البلطجي يستجيب للتوحدات البطولية، وهي التوحدات التي تضفي قيمتها على سلوك البلطجة كعمل بطولي، ولذلك فإن البلطجة بالنسبة للبلطجي هي وسيلة للتوافق تحقيقًا لذاته. وبحسب نظرية التحليل النفسي فإن الإنسان لديه غرائز عدوانية مضادة للمجتمع، ولكنها لا تخرج إلى حيز الواقع إلا عندما ينحرف نمو الأنا ونمو الأنا الأعلى عن المسار

الطبيعي لدى الأسـوياء، أما في حالة السـوية فإن العـدوان الفطري يكبت ولا يخرج إلا في أحلام اليقظة والأحلام.

وامتـدادًا للحديـث حول الأنا والأنـا الأعلى يعتقد المؤلـف أن البلطجة في مرحلـة المراهقـة هي محاولة لتقويـة الأنا الذي جرحته مشـاعر الدونية بالانضـمام إلى جماعـات منحرفة، أو أنه يبرهن لنفسـه على شـجاعته، وهي محاولـة تدفعها رغبة خفيـة لعقاب الوالديـن بإتباع سـلوك ينغص حياتهما فيه تضخيـم لذاته (بارانويا)، وتكون أكثر أنواع البلطجة انتشـارًا في هذه المرحلة هي البلطجة الجنسـية اسـتجابة لدوافع غريزيـة معطلة أو مهملة تخرج في شكل سلوك جنسي خاطئ.

النظرية السلوكية الراديكالية

(أنصار التغيير الأساسي والسريع):

انتقد واطسـون Watson تفسـيرات التحليل النفسي للسـلوك الإنساني، وكان متحمسًـا في رؤيته بـأن علم النفس يجب ألا يكون علـمًا للعقل و إنما هو علم للسـلوك، كما كان شـديد الاعتقاد بتأثير البيئة على الإنسـان، وأن الإنسان يتشكل مما يتعلمه.

ويؤكد «واطسـون» أن السـلوك العـدواني عند الفرد محكـوم بالمثيرات البيئيـة وأنه كلما زادت المثـيرات التي تؤدي إلى الاسـتجابة العدوانية كلما نمـت صفـة العدوان، وهذا ما أسـماه بمبـدأ التكرار، ولن يتم ذلـك التكرار إلا إذا قوبـل بالدعـم والتعزيز، وبذلك تصبح صفة العـدوان رهينة تكرار المثيرات وتدعيمها (محمد السيد عبد الرحمن، 2000، 107).

ويرى السلوكيون أن السلوك المرضي يمكن اكتسابه كما يمكن التخلص منه، ومن ثم عدم وجود اختلافات بين طريقة اكتساب السلوك العادي وطريقة اكتساب السلوك المرضي، إذ أن العملية الرئيسة في كلتا الحالتين هي عملية تعلم، وهي عملية تكوين ارتباطات بين مثيرات واستجابات.

ويتفق «سكينر» Skinner مع «فرويد» في حتمية السلوك وعدم عشوائيته، في حين ينتقض تفسيرات نظرية التحليل النفسي بسبب إدخال بعض المفاهيم العقلية بين السلوك والحدث المسبب له (روبرت د. ناي، 2003، 101). وقد أكد على مبدأ الإشراط البسيط مثل التعزيز والانطفاء والإشراط المضاد والتميز، ويرى أن العدوان سلوك يظهر نتيجة التعزيز، أي أن الوالدين إذا لم ينكروا ويعاقبوا أطفالهم على السلوك العدواني فهذا يمثل لهم تعزيز للاستمرار، في حين يرى أن العقاب إذا لم يعقب بتدعيم لسلوكات جديدة فإن السلوكات المعاقب عليها قد تظهر وقد تكون أكثر قوة.

يقول «هنري ماير» (1981، 189) وعلى الرغم من اهتمام علماء المدرسة السلوكية بالثواب والعقاب، واعتباره من العوامل ذات التأثير القوي في التنشئة الاجتماعية، إلا أنه يعتبر أساس المشكلات السلوكية، وأنه لا يؤدي إلى إخماد السلوك غير المرغوب فحسب، بل يؤدي إلى آثار جانبية ضارة، قد يؤدي إلى مشاعر الذنب، وزيادة مشاعر الغضب، والعدوان والقلق.

وباختصار فإن الاستجابات المعززة (البلطجة) تميل إلى التكرارية والزيادة في حدوثها، وتصبح لها جذورها كاستجابات عادية وشائعة في سلوك الشخص وعاداته، وهذا ما نجده في مرحلة الانفلات الأمني بعد الثورة وغياب الشرطة التام عن موقع الأحداث، فوجدنا البلطجي الذي

يمارس بلطجته على الآخرين يرى نفسه وكأنه بطل (تعزيز) وبالتالي فإنه يكرر نفس السلوك في المواقف المشابهة. وطبقاً «لسكينر» فإن الشخص البلطجي قد تم تشجيعه والتفاخر بسلوكه في طفولته من والديه أو رفاقه، وأيضًا البيئة التي يعيش فيها، وهو ما يطلق عليه بالتعزيز الإيجابي Positive reinforcement. أما التعزيز السلبي negative reinforcement فهو مثل الإيجابي، ولكن بدلاً من أن تعطيه حافزاً ترفع عنه شيئًا كريهًا، فعندما يتم التغاضي عن أفعال البلطجي في مقابل أن يأتي بالمعلومات عن آخرين فإن هذا هو التعزيز السلبي.

النظرية السلوكية الجديدة

فسر هِل Hall عملية التعلم على أساس إختزال للحافز، أي أن السلوك المتعلم يظهر فقط إذا تلا استجابة الفرد اختزال للحافز، فالطفل يتعلم الرضاعة للتخفيف من جوعه، ولو لم يحدث هذا التخفيف فالطفل لن يتعلم القيام بهذا النشاط. وكذلك الفرد يتعلم البلطجة من أجل أن يشبع حاجة ما، كأن يعتدي أو يسرق لضعف مادي، أو يعتدي على غيره كنوع من الانتقام، أو أنه يمارس البلطجة الجنسية لإشباع الدافع الجنسي.

ويذهب ميللر ودولارد إلى أن التعلم يتم أساسًا عن طريق التقليد. والتقليد، في نظرهما، نزوع مكتسب، فالناس يكتسبون مهاراتهم وعاداتهم من خلال إدراكهم لما يفعله الآخرون في مواقف وأوضاع محددة. إن الطفل يحاول أن يقوم بمثل ما يقوم به والداه و إخوته الكبار. وهذا ما يطلق عليه ميللر ودولارد اسم التعلم الاجتماعي.

كـما يؤكد كلاهما عـلى أن الإحباط يقود إلى العـدوان، وأن عدم تحقيق الفـرد لأهدافه يشـعره بالإحبـاط الذي يـؤدي إلى السـلوك العـدواني إزاء الأشـخاص أو الممتلكات أو الأشـياء التي حالت دون تحقيق أهدافه، وهذا يعتبر من أبرز أضرار الشـخصية المضـادة للمجتمع، كما أكدا على أنه كلما زادت شـدة الدافع الذي يرغب الفرد في إشـباعه وتتم إعاقة ذلك الإشـباع، كلما زادت شدة الإحباطات، ومن ثم زيادة حدة السلوك العدواني.

ويركـز «باندورا» Bandura عـلى قدرة الفرد على تعلم سـلوكات متقنة تتشكل على نحو يتواءم داخل النظام المعقد لحياتنا، كما يذهب إلى أنه يوجد ما بين المثير والاسـتجابة تكوين معقد للغاية وهو الشخص الداخلي Inner Person الذي يسـتطيع أن يتخذ قـرارات وأن يحلل الأحداث والمثيرات قبل أن يأتي بالاستجابة (إبراهيم عيد، 2005، 51).

ووفقًا لباندورا فإن الشـخص يتعلم سلوكات البلطجة عن طريق ملاحظة سلوك الآخرين، وهؤلاء الآخرون يعتبرون من الناحية التقنية نماذج Models وتعلم البلطجة من خلال مثل هذه الملاحظة يسـمى الاقتداء بالنموذج. وتجدر الإشـارة إلى أن تعلـم البلطجة بالملاحظة قـد لا تظهر أثرها في أيام أو أسـابيع أو حتـى شـهور؛ لأن الإنسـان لديه القـدرة على إدخـال المعلومـات وخزنها واسترجاعها حول الاستجابات التي صيغت على نمط النماذج التي تعرض لها.

التيار الإنساني

تأثر هذا التيار بالفلسـفة الوجودية التي هي تشـكيلة متجانسة من علم اللاهوت والفلسـفة والطب النفسي وعلم النفس، وقـد اندمجت جميعًا لفهم

الوعي والسلوك الإنساني والانفعالات البشرية، ويركز الوجوديون على الوعي الإنساني وعلى أن الإنسان موجود في العالم يعي وجوده ويعي العدم المتربص به (الموت)، وأن الإنسان هو الذي يضفي على الحياة معنى، ومن ثم فهو مسئول عمن يكون وعن ماذا يكون (إبراهيم عيد، 2005، 54-53). ويرى رشدي فام (2000، 61) أن «أهم نقطة في التيار الإنساني هي إلقائه بالتبعة والمسئولية الكاملة على الإنسان فيما يتعلق بأفعاله ونواتج سلوكه وتصرفاته».

أي أن سلوكات البلطجة بكل أشكالها، وغيرها من أي سلوك انحرافي تكون مسئولية الشخص القائم بالفعل وأنه مسئول عنه مسئولية كاملة. صحيح أن الماضي له تأثير على الحاضر والمستقبل، ولكن هذا الماضي لا يحدده أو يحتمه. «أي أن التيار الإنساني يعترض على الحتمية الميكانيكية للسلوك، ويرى أن الإنسان كائن عاقل يستطيع إذا أعمل عقله أن يعدل من سلوكه دائمًا».

وتقوم أفكار «روجرز» Rogers في سيكولوجية الإنسان على أن الحافز أو «الدافع» الأكثر تأصلاً في الإنسان والأقوى تأثيراً على شخصيته هو حافزه إلى تحقيق ذاته وتقويتها. ويفترض روجرز أن الطبيعة الإنسانية الأساسية إيجابية في الواقع، وأنه ليس هناك شيء سلبي أو شرير بالفطرة داخل الإنسان، وأن الإنسان إن لم ندخله في تركيبات اجتماعية في شكل «قوالب» يصوغها المجتمع بقيمه وأعرافه، وإذا قبلناه كما هو لوجدناه كائنًا «طيبًا» ينمو نحو تقدم نفسه وتقدم مجتمعه.

وعندما يمر الفرد بخبرة غير منسجمة مع شروط تقدير الذات لديه فإن هذه الخبرة لا تنضم ضمن نظام خبراته بشكل يقبله، عندها يناله التشويه

والتحريف والإنكار، الأمر الذي يحدث التناقض بين الذات والخبرة، ويصاحب هذا التناقض شعور بالتهديد والقلق، وعندما يزداد هذا التناقض بدرجة عالية فإن الفرد سوف يكون مضطراً إلى مساعدة تجعله منسجماً مع الذات، وعندما لا يحصل له ذلك الانسجام يجد نفسه محبطاً، عندها يشعر بقوة اتجاه العدوان على الذات والآخرين (عبد المطلب أمين القريطي، 1998، 92).

ويندرج فكر «ماسلو» Maslow (1908 - 1970) مع فكر روجرز تحت عباءة المدرسة الإنسانية، حيث يعتقد أن الإنسان خير بطبعه، وطبقًا لرأي «ماسلو» فإن السبب الأول للمشكلات السلوكية هو الفشل في إشباع الحاجات الأساسية مثل الحاجات الفسيولوجية وحاجات الأمان والحب والتقدير وتحقيق الذات، وكلما زادت حدة عدم تحقيق الذات كلما ذادت خطورة السلوك المنحرف (محمد السيد عبد الرحمن، 2000، 98).

تعليق على النماذج المفسرة

لقد اعتقد «فرويد» بأن الإنسان طوال حياته يتحرك وفقًا لتاريخه السابق، ولا يزال يحمل خلال مراحل حياته ميلاً للعودة إلى مراحل ما قبل الحياة أو الموت، هذا الميل يتمثل نفسيًا في الرغبة في الموت. وقد تظهر تلك الرغبة مباشرة كما في حالات الانتحار، أو بصورة غير مباشرة عندما يهوى بعض الأفراد هوايات مدمرة مثل: سباق السيارات، أو الأعمال المتهورة في أنشطة تحمل في طياتها مخاطر جسمية، أو إدمان الكحول والسجائر، وعمومًا فإن غريزة الحياة تتعارض مع غريزة الموت وتقف حيال تحقيقها.

وينظر أصحاب المدرسة السلوكية عمومًا للبلطجة على أنها سلوك شاذ ومكتسب، ويتم اكتسابه بفعل عمليات خاطئة من التعلم، كما اعتقد السلوكيون أن السلوكات الشاذة والسوية على حد سواء سلوكات متعلمة؛ لأن السلوك عمومًا يخضع للقوانين نفسها ويكتسبه الإنسان تبعاً لقوانين الاشتراط الإجرائي والاشتراط الكلاسيكي، علاوة على أن السلوك الشاذ يحدث نتيجة لخلل في عملية الاشتراط (التعلم) وغالبًا ما يكون ذلك على شكل تعزيز للسلوك غير التوافقي وعدم تعزيز السلوك التوافقي.

فالبلطجة سلوك مكتسب ومتعلم من التفاعل والاحتكاك بالبيئة الاجتماعية والمادية التي ينشأ فيها الفرد، مثله في ذلك مثل التدخين واللعب و...الخ؛ لأن الإنسان يولد أملس الحواس، يحتاج إلى الترويض والتعلم لاكتساب المهارات، فهو لا يعرف الخير والشر ولا الحسن والقبيح، فهي صفات لا تولد معه، ومن هنا يأتي دور الأسرة والمجتمع، على أن للوراثة

دور لا ينكر في تحديد وتأصيل الصفات بألوانها المتعددة وأهمها صفتا: الخير والشر.

وجاء التيار الإنساني ليجعل للإنسان حقه في الاختيار، وحقه في أن يخطئ ويتعلم من أخطائه، ولذلك كان العلاج بالمعنى تأكيداً على الإرادة والمعنى، وتأويلاً للأحداث وليس تركيزاً عليها، فكان التيار الإنساني مستقبلي التوجه، فإذا كان الشخص ضحية لبلطجي وأعمال بلطجة في الماضي فليس من الضروري أن يكون بلطجيًا بعد ذلك، كما أن شخصية البلطجي وما يصدر عنها من سلوك لا ترجع فحسب إلى الوراثة، كما لا ترجع فحسب إلى البيئة، بل ترجع إلى الأمرين معًا، فما من نضج بغير تعلم، وما من تعلم إلا في الحدود التي يسمح بها النضج. ثم كان هرم «ماسلو» للحاجات والذي في قمته تحقيق الفرد لذاته، الفرد كفرد، في الوقت الذي نجد فيه أن قمة الهرم المنشود وحاجاته عندنا تنتهي بتضحية الفرد بذاته وماله في سبيل وطنه وأرضه وأمته.

ويعتقد المؤلف أن النفس ليست شريرة محضة ولا خيرة محضة، وإنما تجمع في غرائزها الفطرية بين هذا وذاك، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: 7 - 10]. كما أن الإنسان مسئول مسئولية مباشرة عما تتلقاه حواسه حين يعيش في بيئة فاسدة أو منحرفة، وتحويلها إلى بيئة صالحة. فهو يتعلم سلوك البلطجة من البيئة المتمثلة في الأسرة والأقران والجيران و... إلخ، ولكن تقع على عاتقه مسئولية التغيير والتعديل، حتى لا يتعود على السلوكات الضارة مثل التدخين، وتعاطي المخدرات، وتناول الكحوليات، وممارسة

القمار، والبلطجة، وغيرها من السلوكات الشاذة. فالخواطر والأفكار هي البداية، ثم تدخل المجال الإدراكي للفرد وتنمو لتصبح تصوراً لإجراءات، ويترجمها الفرد إلى إرادات تدفعه إلى سلوكات تقوم بها جوارحه، وبتكرار السلوك يصبح عادة Habit يقوم بها بشكل تلقائي.

فالإنسان ليس مجرد دوافع وانفعالات وقوة غرائز، وإنك لترى أنه ليس أكثر من إنسان خاضع عند «سكينر»، ومبرمج عند «لورانز»، ومنفصم عند «فرويد»، وهذا الإنسان غير الإنسان الذي تريده تربيتنا قطعًا، فنحن نريد إنسان قادر على أن يقوم بوظيفته كما أسندها الله إليه، وهي الخلافة في الأرض وعماراتها والسعي فيها واستنباط قوانينها وإقامة الحق والعدل بين مواطنيها، ومن هنا كانت التعاليم السماوية من خلال رسالاتها الإنسانية التي أعطت للخلق معنى وبعد إنساني لفكرة الخير والشر، حيث ارتبطت بالنوايا وصدقها وقيمة الخير والشر وثواب وعقاب هذا أو ذاك.